إشارة صوفية عن الطريقة القادرية أصولها وأهم آدابها

د.هاجر الطيب الطاهر عمران
كلية الآداب بالزاوية – جامعة الزاوية

ملخَّص البحث:

إنَّ منهج الطريقة القادرية في التهذيب الروحي والخلقي كانت له فاعلية قوية لأنَّه يتجه إلى وجدان الإنسان أساساً، فشيوخ تلك الطريقة عرّفوا لنا من خلال آدابهم وتعاليمهم الخير والتسامح وغيره من الصفات التي تعصم المرء مِن الضلالة والتيه، وأكَّدوا أنَّ الأخلاق الفاضلة هي العاصمة مِنْ جميع الرذائل والشرور، والقادرة على مسايرة تطورات المجتمع بأشكاله المختلفة، وبالتالي توفر الطمأنينة والسعادة، فكان طبيعياً ووفقاً لهذا المنهج أنْ لا يهمل أصحاب الطرق الحياة تماماً، فلم يقطعوا كل صلة لهم بالحياة العملية، وإنَّما اتخذوا روحاً معتدلة فجمعوا بين العلم والعمل، ولم يهملوا الجوانب الفكرية بحثاً عن حياة أفضل، فلم تكن حياتهم كما صوَّرها البعض على أنَّها حياة القاعدين والمتواكلين، وإنَّما حياة العباد الصالحين والعلماء العاملين الذاكرين.

Summary :

There is no doubt that the method of this Qadiriyya method in spiritual refinement

It was very effective because it was directed to the conscience of the human being mainly the sheikh of that way knew us through manners and teachings of goodnessm, tolerance and other qualities that protect a person from misquidance and misquidance they emphasized that virtuous morals are the capital of all messenqers and pleasure, and are able to keep pace with the developments of society in its various forms ,and thus provides tranquility and happiness,so it is natural,and a ccordinq to you this approach, not to neqlect the people of the ways to live completely ,as they did not

cut , off all ther connection with life they took ,a moderate spirit and combined knowledqe and work,and did not neqlect the intellectual aspects in search of abtter life . their lives were not, as some portrayed it as the life of the lazy and the debendent Ra threit,is the life of riqhteous servants and scholars who remember

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد الكريم خير منْ عرف مظاهر قدرة الله، وأفضل منْ أظهرها لنا مصقولة ومُزكَّاة.

لقد كان للطريقة الصوفية القادرية مكان الصدارة في نشرِ الدعوةِ الإسلامية خصوصاً في شرقي آسيا وقارة إفريقية، وفي قيامها برسالتها التربوية الدينية العلمية الاجتماعية، وبما أنَّ الطرق شكلت الحياة الروحية في التصوف الإسلامي، والتي كان مِنْ رجالها عبد القادر الجيلاني، فهي جديرة بأنْ تمجِّد وتجدِّد، لكي تذكى جذوة الروح في النفوس فتتجرَّد من شهوتها، وتنتصر على أهوائها، وتصحح لأتباعها معرفتهم بربهم الكريم، ودينهم القويم ونبيهم المبعوث رحمة للعالمين، ليكونوا كما كان على خلق عظيم، فهو الأسوة الحسنة لجميع المسلمين الذين واصلوا جهادهم الأكبر استعداداً للجهاد الأصغر في سبيل الله، والدفاع عن أرض وطن ترتفع فيه راية الإسلام وفيه يسمع الأذان، وتحترم حقوق الإنسان ويلتزم بشريعة القرآن –وإنْ لم تكن كذلك– أي الطرق – فهي صور لا حقائق وراءها– فهل هذه الطريقة انتهجت في توجهها الروحي التربوي منهاج إسلامي معتدل؟ وما أساس هذا المنهاج؟ وهل كانت واسعة الانتشار؟

وأمَّا عن الهدف من هذا البحث فيكمن في محاولة إظهار الدور الذي قامت به الطريقة القادرية في تقوية ميراث الإسلام الصحيح وفرائضه وسننه ومقدساته.

وقد كان من أسباب اختياري لموضوع البحث الوقوف على حقيقة الطريقة القادرية ولو بإشارة، وذلك من خلال إبراز النظام الروحي والثقافي والتنظيمي الذي تفرضه على مريديها.

وقد انتهجت في هذا البحث المنهج الوصفي فقمت بتقسم البحث بعد المقدمة إلى:

أولاً: الطريقة بين اللغـةً والاصطلاح:

أ- الطريقة لغة:

الطريقة جمعُها(طرائق) وطريقة الرجل مذهبه، والطريقة الخط في الشيء، والطريقة السيرة، ويُقال: مازال فلان على طريقةٍ واحدةٍ، وفلان حَسَنُ الطريقة، والطريقة هي الحال، ويقال: هو على طريقة حسنةٍ أو طريقةٍ سيئةٍ. والطريقة عند الثعالبي (أبي منصور عبد الملك بن محمد، ت403هـ/1012م) هي المرصاد والنجد والطريقة الواضحة أو الطريق الواضح [1]، في حين أنَّنا نجدها عند الجوهري بمعنى السبيل، يُذكر ويؤنث، نقول: الطريق الأعظم والطريق العظمى، والجمع أطرقة وطرق، وطريقة القوم أماثلهم وخيارهم، يقال: هذا الرجل طريقة قومه، وهؤلاء طريقة قومهم، وطرائق قومهم أيضاً[2].

ولقد وردت اللفظتان (طريق) و(طريقة) في القرآن الكريم في أكثر من موضعٍ من آياته، منها قوله تعالى:[كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً] سورة الجن:الآية11، وقوله تعالى:[يَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثلى] سورة طه:الآية،63، والآية[إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لَمْ يَكُن اللهُ لِيَغفِر لَهُمُ ولاَ ليَهدِيَهُمُ طَرِيقاَ] سورة النساء: الآية،168، والآية [ولَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَينَاهُم مَّاءً غَدَقاً] سورة الجن: الآية 16، والآية [قَالُوا يا قومنا أنا سَمِعنَا كِتَاباً أَنزِلَ مِنْ بَعدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّما بينَ يَديهِ يهدِى إِلَى الحَقَّ وإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ] سورة الأحقاف: الآية 130.

ب- الطريقة اصطلاحاً:

ظهر مُصطلَحُ(طريقة) كما نعرفه الآن من المنظور الديني في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وتمَّ ذكر ذلك في الرسالة القشيرية التي كُتبت في القرن الخامس الهجري، وهو يعني مجموعة من الآداب والأخلاق والعقائد التي تتمسَّك بها طائفة الصوفية[3].

ويجعل القشيري كذلك طريقة الصوفية مقابلة لطريق أرباب العقل، فطريق الصوفية ذوق وكشف وطريق أرباب العقل والفكر هو: طريق استدلالي، كما يذكر القشيري أيضاً أنَّ "كلمة طريقة تعني الإرشاد النفسي والخلقي الذي يربّي به الشيخ مريديه، فيُروى عن أبي بكر الدقاق(*) قوله: "الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فهي تورق، ولكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه الطريقة نفساً فهو عابدُ هواه لا يجدي نفعاً"[4].

وممَّا هو واضح بأنَّ الرسالة القشيرية توضِّح لنا أنَّ أوائل الصوفيين كانوا يذهبون إلى جانب اصطلاح (الطريق) و(الطريقة) اصطلاح السلوك، في حين أنَّ أبا العلا عفيفي ينظر

إلى الطريقة على أنَّها الأسلوب الخاص الذي يعيشه الصوفي وبمقتضاه في ظل جماعات الصوفية التابعة لأحد كبار المشايخ، وهي مجموعة من التعاليم والآداب والتقاليد التي تختص بها جماعة من هذه الجماعات، حيث يرى إنَّ للطريقة معنى آخر أعم وأشمل، وهو الحياة الروحية التي يحياها السالك إلى الله تعالى أيّاً كان سواءً منتسباً إلى فرقة صوفية أم غير منتسبٍ وتابعاً لشيخ أم غير تابعٍ، فالطريقة بالمعنى الأول ما هي إلا فردية، إذ لكل سالك إلى الله حياته الفردية الخاصة، وكماله الروحي الذي يعيشه سواء بمفرده أم ضمن الجماعة، وهذا ما يؤكده أبوبكر الطمستاني بقوله: "الطرق إلى الله بعدد الخلق"[5].

أمَّا المعنى الثاني للطريقة فهو أنَّها ليست سوى المعراج الروحي عند الصوفية، وهي التي أُطلِقَ عليها اسم السفر[*] والسلوك والمعراج وتمَّ تقسيمها من أقدم العصور إلى مراحل أو منازل تحت مُسَمَّى(المقامات)، كما تمَّ تسمية الأحداث النفسية الروحية التي تنتجب (الأحوال)[6]. كما أنَّ الطريقة تطلق على مجموعة من الأفراد الصوفيين الذين ينتسبون إلى شيخ معيَّن ويخضعون لنظام دقيق في السلوك الروحي ويحيون حياة جماعية منظَّمة في الزوايا والرباطات والخانقاوات، ويجتمعون اجتماعات دورية في مناسبات معينة، ويعقدون مجالس الذكر والعلم بانتظام[7].

وعلى هذا النحو يكون للمريد[**] شيخ يأخذ عنه، ويسمَّى الزمن الذي يقضيه المريد في صحبة الشيخ (زمن الإرضاع)، والشيخ وحده هو الذي يحدِّد وقت فطام المريد، إذ يصبح لكل شيخ طريقة فتكون الطريقة، وممَّا سبق ذكره وبالأصح كما ارتآها د. عبد المنعم الحفني في موسوعته، هي مجموعة من القواعد يرسمونها للمريدين[8].

وعلى هذا النحو يمكننا أنْ نقول بأنَّ بناء المؤسسات الصوفية قد اكتمل بشكل منهجي خضعَ للنظام وفق منهجية معينة، بعكس ما كان عليه سابقاً من وحدة في النظام والتفكير الذي لا تضبطه قواعد ذات أسس منهجية، وما نعنيه بالمؤسسات هي الطرق التي أصبح لها قواعد وآداب في تصوفها، وكل هذا يشكِّل منهجية واضحة، كما يمكننا القول بأنَّ الدور الذي لعبته الطرق الصوفية قديماً وحديثاً هو الحفاظ على ميراث الإسلام وفرائضه وسننه ومقدَّساته، ولكن السلطة الإسلامية الحاكمة اعتبرت أنَّ فيها انحرافاً عن التقاليد الدينية، ولم تجد الدولة الإسلامية مفراً في اتخاذ كافة الوسائل لحماية الدين من هذه الانحرافات الهدامة في نظرها سواء أكانت هذه الانحرافات تنحو منحى الاعتقاد، أم منحى الحركات السياسية،

وقد قام الصوفية في هذا الصدد بدور تاريخي مهم لصيانة التراث الإسلامي الخالص، وتطويره لمسايرة العصر دون أنْ تفقد الشخصية الإسلامية شيئاً من مميزاتها، وهذا هو الدور الذي لعبته الطرق الصوفية[9].

وممَّا يجدر ذكره أنَّ أغلب الطرق منسوبة إلى أربعة من كبار الأولياء وهم: الشيخ عبد القادر الجيلاني، والشيخ أحمد الرفاعي، وأحمد البدوي (596 -675هـ/1199-1276م) وإبراهيم الدسوقي (636 -676هـ/1238-1278م)، ولكل واحد منهم طريقةٌ واحدةٌ، ثم تفرَّعت الطرق بتعدد من أخذها مباشرة أو بالوساطة، وتنتسب للآخرين عنهم لتفرعها عن الأصل لأحد السادة الأقطاب(*)[10].

فضلاً عن ذلك نجد أنَّ هذه الطرق المنسوبة إلى هؤلاء الأربعة من الأولياء(**)"صاحب الطريقة فينسبه إمَّا أنْ يكون علوياً، وإمَّا أنْ يجعل طريقته وراثية على نسق الإمامة الشيعية، أو الخلافة العباسية، ومن المعروف أنَّ التصوف والوراثة أمران متناقضان، لأنَّ المشيخة تحصل بالمجاهدة والسلوك، ولا يعقل أنْ يكون للشيخ ولي عهد"[11].

وقبل أنْ نتحدث عن تلك الطريقة، ينبغي أنْ نشير إلى أنَّ التصوف حاول أنْ تكون له فلسفة تربوية تقوم على قطع العلائق عن المجتمع وإعلاء الجانب المثالي بصور تتمثَّل في الزهد الشديد المنتظم، حيث حاول أوائل الصوفية أنْ يؤسسوا مدارس لهم لتعليم هذه الفلسفة بصورة عملية، وهذا ما يؤكده الدكتور الشيبي بقوله: "ومن هنا قيل أنَّ أول رباط(***)صوفي أُنشئ في الرملة بالشام في منتصف القرن الثاني الهجري"[12].

وممَّا هو واضح أنَّ هذا الرباط كان بمثابة أول تجمع تاريخي صوفي تربوي، وإذا كان الأمر كذلك، فليس بغريب إذن أنْ تعد الملامتية التي نشأت في القرن الثالث الهجري هي أول تجمع صوفي غير اصطلاحي، ويمكن أنْ نطلق عليه أولى إرهاصات التنظيمات الاجتماعية الصوفية البسيطة بعكس التصوف الفردي الذي كان يمثله الجنيد وغيره، والذي يشكِّل نوعاً خاصاً في الحياة، وفي النظام الذي يمارسه، إذ يقول الدكتور عبد العزيز محمد: "هناك نسبة إجماع على أنَّ الملامتية كفرقة ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وهي لم تنشأ بمعزل عن الحركة العامة للتصوف التي انتشرت في معظم أرجاء العالم الإسلامي في القرنين الثاني والثالث، ولا نُغالي إذا قلنا إنَّ الإرهاصات الأولى

للملامتية ترجع إلى العهد الأول للإسلام"[13]، ويقول كذلك: "إنَّ الدكتور أبا العلا عفيفي وصل إلى نتيجة مؤداها أنَّ الملامتية فرقة متميزة عن فرق الزهاد المسلمين، لها طابعها الخاص وحياتها الخاصة الروحية، بمعنى أنَّ الملامتية صورة من صور الزهد العملي التطبيقي، وليس من صور التصوف الروحاني المثالي، وأنَّ الميزة التي يتميز بها المذهب الملامتيهي محاربة لكل مظاهر التصوف من جذب ومحو وفناء، وما شاكل ذلك من الأحوال والمقامات الصوفية ومحاولتهم الرجوع بالزهد الإسلامي إلى سيرته الأولى"[14].

ومن أشهر رجالها حمدون القصار، الذي يعد مؤسسها الحقيقي، (ت 271هـ /884م) أبو جعفر الحداد (ت 270هـ/883م) وأبو عثمان الحيري (ت 298هـ/910م)[15].

ولإبراز الجانب العملي مِن الملامتية باعتباره العنصر الذي يشكِّل هذه الطريقة، كان علينا أنْ نبين بعضاً مِنْ أصولها وآدابها، وسنكتفي بذكر البعض منها لإيضاح نشاطها والاتجاهات العامة لمذهبهم، فمن أصول هذه الطريقة:

1. اتهام النفس في جميع الأحوال أطاعت أم عصيت، وقلَّة الرضا عنها والميل إليها بحال.
2. تعظيم ما لله عندهم من جميع الوجوه وتصغير ما يبدو منهم من الموافقات والطاعات وملازمة حدودهم مع الله.
3. الإنسان يجب أنْ يكون خصماً على نفسه غير راضٍ عنها بحال من الأحوال[16].

وقد قال أبو حفص النيسابوري في التصوف، وهو أحد رجالها، إنَّ: "التصوف كله أدب ولكل وقت أدب، ولكل مقام أدب، فمَن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومَن ضيَّع الآداب فهو بعيد"[17]، ومن آداب هذه الطريقةِ العبوديةُ، وهذا ما يوضحه النيسابوري حيث قال: "ترك العبودية والتزام ما أمرت به"[18]، كما أنَّ أصل العبودية شيئان: "حسن الافتقار إلى الله عزَّ وجلَّ وهذا من باطن الأحوال، وحسن القدوة برسول الله (ﷺ) وهذا ليس فيه للنفسِ نَفَسٌ ولا راحة"[19].

وممَّا سبق ذكره يتضح أنَّ الملامتية أولى التجمعات الصوفية المنظمة، وعلى هذا النحو مثَّلَت الملامتية كفرقةٍ الإسلامَ في سيرته الأولى، ومن هنا اختلفت الملامتية مع المتصوِّفة في المنهج والأسلوب، في حين أنَّ الغاية واحدة، أي اتفقت مع الصوفية في

تحصيل المقامات والأحوال والتحقق بها، ولكنّها اختلفت عنهم في الاهتمام بكتمانها وسترها[20].

يمكننا أنْ ننوّه إلى القارئ أنَّنا بذكرنا للملامتية نكون قد أظهرنا الدور الكبير لها كمنطلق احتمالي قديم لتجمع هذه الطرق فيما بعد، أي أنّها الأولى في النشأة وبعدها ظهرت بقية الطرق كالشاذلية وغيرها في هذا الجانب، والجانب الآخر فنحن أدرجناها لكي لا نكون قد أجحفنا في حقها من الذكر، وهي لها حق السبق الزمني والمكاني.

"لقد كان الشيخ عبد القادر الجيلاني أول من أسَّس الطرق الصوفية ونادى بها"[21]، إلا أنَّ طريقته لم تنتشر كالرفاعية وتشتهر في عهد صاحبها، وعن طريق تلاميذه، فالقادرية للأسف رغم سبقها الزمني التاريخي لم تنتشر إلا بعد وفاة شيخها وعن طريق تلاميذه وأنصاره من بعده، لذا وضعت في الترتيب بعد الرفاعية وذلك لأسباب يذكر الشيبي بعضاً منها، إذ يقول: "فطريقة عبد القادر الجيلاني لم تكن منظَّمة على هذه الصورة أيام عبد القادر نفسه، فقد كان واعظاً مشهوراً، وإنَّما اتُّخذ لها كياناً بعد وفاته بزمن طويل، ثم نسبت إليه الطريقة بوصفه الشيخ التاريخي البارز لأصحابها، وتدل الدلائل التاريخية على أنَّ الدولة العثمانية(*) كان لها الدور البارز في نشر هذه الطريقة في أنحاء العالم الواسعة"[22]، وممَّا هو واضح أنَّ أولاده قد ساهموا في نشر طريقتهم[23]، "وبعد وفاته انتشر تلاميذه في البلاد ناشرين معهم العلوم الشرعية والطريقة القادرية"[24].

وممَّا سبق نلاحظ أنَّ عبد القادر الجيلاني هو من وضع اللبنة الأولى أو الأساس بوعظه فأكمل ذلك الأساس أبناؤه من بعده، فأخذ التصوُّف منذ هذا الوقت ينحو نحو التربية العامة لا الخاصة في التوجُّه الأخلاقي والتكامل الروحي، وهذا ما تبلور في هذه الطرق الصوفية التي تمثل صورة اجتماعية منهجية تربوية إصلاحية، وسيتبين لنا هذا من خلال عرضنا لهذه الطريقة، "فكانت بذلك التطبيقات العملية التي نادى بها شيوخ التصوف اعتباراً من القرن السادس الهجري لتكون مبادئاً تُكوِّنُ ملامح الطرق الصوفية، فصاغت هذه الطرق القالب الذي يَنْصَبُّ منه تجمع الصوفية على صورة من الصور"[25] ، فهي أولى الطرق وممَّا ينبغي أنْ يشار إليه هنا أنَّها من الطرق التي بدأت شهرة شيخها في القرنين السادس والسابع الهجريين.

ثانياً- حياة الشيخ عبد القادر الجيلاني وأهم صفاته.

تنسب إلى عبد القادر بن موسى جنكيدوست(**) الفارسي الأصل، ولد بجيلان(***) سنة(470هـ/1077م) ودخل بغداد يتيماً غريباً في الثامنة عشرة من عمره، و بها تُوفِّيَ سنة (561هـ/1166م) أيامَ الخليفةِ المستنجدِ بالله[26].

وممَّا هو واضح أنَّ الجيلاني دخل بغدادَ شاباً وتلقَّى العلم ومارسه فيها، وبها تُوفِّيَ، يقول الدكتور عبد المنعم الحفني إنَّ "نسبه إلى جيلان من طبرستان تلقى الطريقة من حماد الدباس(*) وأخذ الخرقة من ابن سعد المبارك، واشتغل بالقرآن في مدرسته وتفقَّه على مذهب ابن حنبل وكل ذلك كان في بغداد"[27].

"كان الشيخ عبد القادر يُفتي على مذهب الإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، وكانت فتواه تعرض على العلماء بالعراق، كما أنَّه كان متبحراً في علوم الشريعة واللغة"[28]، والطريف أنَّ هناك من وصفه في بيت واحد مفرد. وهذا ما وجدناه في كتاب فتوح الغيب للشيخ الجيلاني نفسه حيث قال:

إنَّ بـــــاز الله سلطـــان الرجـــــال * جـــاء في عشـــق ومـات في كمـــال[29].**

ولا يفوتنا هنا أنَّ الجيلاني كان فارسي الأصل فهو إذن أعجمي اللسان، فأول ما فعله هو فك عقدة لسانه بالعربية[29]، "وعندها وصل عند حدود التصوف بعد استكماله العدة في العربية وآدابها والقرآن والحديث والفقه"[30].

ويجدر بنا أنْ نذكر أنَّ هذه الطريقة كغيرها ترجع إلى نسب علوي وهذا ما يؤكده الدكتور كامل مصطفى في حقيقة مؤداها "أنَّ النسب العلوي يضم عبد القادر الجيلاني والسيد أحمد الرفاعي وبكتاش الولي والدسوقي وأحمد البدوي"[31]، ويحق لنا أنْ نسأل هنا أين نلتمس هذا النسب؟!

يمكننا أنْ نظهر هذا النسب وذلك في موضع آخر من كلام الدكتور كامل الشيبي إذ يقول في الصدد: "لقد ثبت النسب لآل عبد القادر الجيلاني فغدوا معروفين بالحسنية ثم أضيفت إليه الحسينية عن طريق نسب والدته أمه الجبار فاطمة بنت السيد (أبي عبد الله) الصومعي، وهكذا يتصل نسبه بعلي بن أبي طالب عن طريق الحسين الشهيد كما وأنَّ أتباع الطريقة القادرية والمعجبين بالشيخ لاحظوا أنَّ لها انتماءات "حسنية وحسينية وبكرية وعمرية وعثمانية "[32].

وهكذا يتضح أنَّ من أخص صفات عبد القادر الجيلاني الوعظ وانشغاله به، وكان ذلك سنة (521هـ/1127م) وحاز على شهرة عالية[33]، إذ يقول أبو الوفا التفتازانى في هذا الصدد: "يشبه الجيلاني الغزالي من حيث أنَّه كان فقيهاً وعالماً بالأصول والفروع ويربط التصوف بالكتاب والسنة"[34].

وها هي بعض من أدعيته – رضي الله عنه – في مجالس وعظه: "اللهم ما نعوذ بك بوَصلك من صدِك وبقربك من طردِك وبقبولك من ردِك، فاجعلنا من أهل طاعتك وودك وأهِّلنا لشكرك وحمدك يا أرحم الراحمين"[35].

وممَّا هو جلىّ وواضح أنَّ الجيلاني لم يؤسس هذه الطريقة، وإنَّما أسسها أحفاده وتلاميذه والمعجبون بوعظه باعتباره أول من مارس التصوف في هذه الأسرة ولاعتباره الشيخ التاريخي لهذه الطريقة، ولذلك فإنَّ ترسيم الطريقة وتنظيمها سيقع على عاتق الأتباع الذين سينسبون طريقتهم للشيخ المؤسس لاستمداد الشرعية لهذه الطريقة، ومهما يكن من أمر فإنَّ الطريقة القادرية انتشرت خارج العراق في عهد الإمام الجيلاني – رضوان الله عليه – وذلك على أيدي العلماء من تلاميذه[36].

إنَّ ذلك يعني أنَّ الشيخ الجيلاني لم يشتغل طيلة حياته إلاّ بالعلم والوعظ فتعلم وعلَّم وألَّف، وعن طريق تلاميذه انتشرت، ففي مصر مثلاً انتشرت القادرية بواسطة تلميذَيْ الإمام علامة البلاد المصرية عثمان بن مرزوق القرشي، والعلامة علي بن عبد الله الأنصاري الدمياطي، وفي اليمن انتشرت الطريقة القادرية على يد تلميذه علي بن الحداد الذي أرسله الإمام ليعلِّم الناس في اليمن الشريعة وأصول الطريقة القادرية[37]، وهذه كلها دلائل على أنَّ هذه الطريقة أسَّسها الأتباع متأثرين بالشيخ ووعظه، وليس عبد القادر نفسه.

ثالثاً– أهم ما امتازت به الطريقة القادرية.

في حقيقة الأمر أنَّ لهذه الطريقة العديد من المظاهر التي اشتهرت بها، وجعلت لها خصوصية عن غيرها ومنها "التساهل وعمل الخير، وكونها أقل تعنتاً وأكثر تسامحاً من الطرق التي ترى أنَّه لا خلاص ولا نجاة للعبد إلا بواسطة أورادها"[38]، "كما أنَّها امتازت بالشفقة وحب الخير والتواضع"[39].

ويبدو كذلك أنَّ لهذه الطريقة خصالاً سبعاً بنيت عليها منها:

1. "مجاهدة النفس. 2. التوكل على الله. 3. حسن الخلق.

4. الصبر على قضاءه. 5. الرضا بالقدر. 6. الذكر لله

7. الصدق في كل الأمور التي يحتاج إليها كل فرد في كافة أمور الحياة"[40].

ويمكننا أنْ نوضِّح أنَّ لهذه الطريقة أسساً انطلقت منها، ومن بين هذه الأسس "بلوغ مرحلة الفناء، وهو أنْ يعمل السالك على أنْ لا تكون له إرادة مع الله من حيث هواه فهو يريد ما يريد الله له الالتزام بالكتاب والسنة، في حين أنَّ البقاء المقابل للفناء هو الشريعة وتقديمها على كل ذوق(*) صوفي، كما أنَّها في أعلى المقامات وأدناها، وما يلزم المؤمن ثلاث: أمر يمتثل إليه، نهي يتجنبه وقدر يرضى به"[41]

رابعاً- أصول الطريقة القادرية وآدابها.

كما أنَّ لهذه الطريقة أصولاً خمسة وهي:

1- "علو الهمة، فمن علت همته ارتفعت مرتبته.

2- حفظ الحرمة، فمن حفظ حرمة الله حفظ الله حرمته.

3- حسن الخدمة، فمن حسنت خدمته وجبت كرامته.

4- نفوذ العزيمة، فمن أنفذ عزيمته دامت هدايته.

5- وتعظيم النعمة، ومن عظمت النعمة في عينه شكرها ومن شكرها استوجب المزيد من النعم حسب ما وعد"[42].

وإنْ كانت هذه الأسس هي التي انطلقت منها هذه الطريقة في تصوفها، فمنهج الشيخ عبد القادر أخلاقي باعتبار أنَّ هذه الطريقة نُسِبَت إليه وإلى تصوفه من الواضح أنَّ هذه الطريقة كانت ولازالت فلسفة حياة لقطاع كبير من المجتمع الإسلامي فمنها المصلح والشيخ المعلم. والمهندس تخصصاً القادري طريقةً.

خامساً: آداب الطريقة القادرية.

وبالإضافة إلى هذا نجد أنَّ لهذه الطريقة آدابها المتنوعة نذكر منها:

آداب اللبس، الذكر، الكرامات، وذلك للتدليل عليها ولو بالقليل ممَّا نذكر:

1. وعن آداب اللباس فلهذه الطريقة "زي خاص بها وهو الزي الأخضر"[43]، بينما يقول الدكتور فاروق أحمد في هذا الصدد: "أعلامها وعمامات أتباعها بيضاء"[44].

2. أمَّا عن آداب ذكرها فهو بمثابة الجانب التطبيقي لها، وهو يتمثَّل في أحزابها وأورادها "وأوراد تلك الطريقة تعد بحسب وصف الباحثين لها طبعاً من أَجَلِّ الأوراد قدراً وأوفرها ذخراً

وأعلاها ذكراً، ومن أحزابها حزب الإشراق، والحزب الصغير والكبير"[45]، "وهو عبارة عن ذكر الله بعد الصلاة عدداً من المرات، وهو لا يشكِّل نظاماً طريقياً متماسكاً من النمط الذي في العصور التالية"[46]، وكما يبدو أنَّ ذكر هذه الطريقة كثير التعقيد جسدياً ونصياً نستغني عنه في هذا المكان.

ويجدر بالإشارة هنا أنَّ كلاً من الرفاعية والقادرية قد اتفقتا في ذكرهما، وهذا ما يؤكده الدكتور شوقي ضيف بقوله: "لقد ظهر من القرن الخامس بين المتصوفة ما يسمَّى بالذكر "وقد عم هذا الذكر عند صوفية الرفاعية والقادرية على حد قوله، أي يتقابل الصوفية في صفين ذاكرين الله مع التمايل يميناً وشمالاً، ويقوم بين الصفين مُنشد ينشد بعض الأشعار الصوفية الوجدانية التي تدفع المحبة الإلهية في القلوب"[47].

3- وإذا كنا تحدثنا عن تلك الآداب فمن آداب هذه الطريقة أيضاً الكرامات والخوارق التي اشتهرت بها وتتمثَّل في صدق الفراسة وقراءة الأفكار، وهي بذلك تختلف اختلافا كلياً عن مثيلاتها كالرفاعية التي تخرق الطبيعة.

يتضح أنَّ بعض أصحاب الطرق انصرفوا إلى الشكليات والرسوم، فابتعدوا عن جوهر التصوف الحقيقي ذاته، وفى ذلك بُعد عن جوهر الدين أيضاً. فالمبالغة في تحدثهم عن كراماتهم ومناقبهم، صرف أكثر الناس عن مزاياه. فعليهم أنْ يعوا جيداً هذه الأمور، لكي يعدوا بالتصوف إلى سابق عهده إنْ أرادوا له الاستمرار.

وفضلاً عن هذا كله فلقد انتشرت هذه الطريقة في اليمن وسوريا بفضل شهرته في الوعظ والإرشاد ثم انتشرت بفضل تلاميذه في أماكن عدَّة في جميع أنحاء العالم، منها الجزائر وجاوة وغينيا والهند ويوغسلافيا والعالم العربي[48]، كما أنَّها معروفة جداً في المغرب ومن فروعها: "القادرية، البكائية وقادرية إدرار، وهم ينشرون الإسلام بطريقة صحيحة وسليمة"[49].

ويقول الشيخ شهاب الدين الزوي القادري في كتابه (سلطان الأولياء): "وفي إفريقية انتشرت الطريقة القادرية ناشرة معها الإسلام على أيدي أبنائها من الدعاة والتجار"[50]، وعن انتشار الطريقة القادرية في العالم يقول المؤرخان الفرنسيان ديفون وكوبولاني في كتابهما (الطرق الصوفية): "إنَّ الطريقة القادرية توجد في جميع أطراف العالم حتى غير الإسلامية والعربية، فهي تنتشر في المغرب الأقصى والجزائر وتونس وليبيا وتركيا وأوغندا

وماليزيا..."[51]، وهذا ما لمسناه أثناء سفرنا إلى تونس وبالتحديد في منطقة الحامة التي وجدنا بها زاوية قادرية بها ضريح أحد أتباع الطريقة وحُجَرٌ يقصدها الزوار المتأثرون بالشيخ المؤسس وطريقته.

الآن وبعد استعراضنا المبسَّط لهذه الطريقة يمكننا أنْ نقول إنَّ أبا مدين الغوث(*) دفين تلمسان (ت 595 هـ/ 1198م) قد أخذ العلم عن عبد القادر الجيلاني بمكة وبغداد، وتولى التدريس وتخرَّج على يده جماعة من العلماء، ومن رجال طريقته وفي مقدمتهم عبد السلام بن مشيش الذي لا يزال مولده عيداً وطنياً بالجزائر، وانتشرت القادرية أيضاً على يد رجلين أحدهما أبو الحسن الشاذلي علي بن عبد الله (ت 656هـ/1258م) والثاني عبد القادر الجزائري المنتمي لهذه الطريقة[52].

من الواضح أنَّ هذه الطرق في منهجها لم تخرج عن حدود تعاليم الإسلام، المقيَّد بالكتاب والسنة علماً وعملاً، والذي لا يدعو إلى هجر الدنيا، والقعود عن السعي والجهاد، وأنَّه ما حاولته هذه الطريقة هو أنْ تكون غايتها غاية خلقيه من إنكار للذات والصدق في القول والعمل والصبر، ومحبة الغير والتوكل على الله وجدير أنْ تكون مبادئ بعض الطرق التي كان نهجها الكتاب والسنة أنْ تكون فلسفة حياة للمجتمع وإنْ استحالت! لأنَّها تحتاج لوسط وبيئة.

الخاتمة:

إنَّ جوهر الحياة عند أصحاب الطرق كان يقوم على نظم وقواعد ورسوم خاصة للسلوك الاجتماعي فكانت تلك الطرق أشبه بمدارس تتحد غايتها في التعليم الروحي ولكنها تختلف في وسائلها العملية باختلاف المعلم الذي يجتهد في أنْ يضع لتلاميذه قواعد ورسوم يرى أنَّها أفضل في تعليمهم، ونتيجة لذلك فالمريد يكون مكتسباً للخبرات من خلال مجتمعه ذاته.

فكانت (الطريقة) إذن هي الأسلوب الخاص الذي يعيشه الصوفي وبمقتضاه في ظل جماعة مِن الجماعات الروحية التي يحياها السالكون إلى الله يخضعون لنظام دقيق في السلوك الروحي، ويرتبطون ارتباطاً منتظماً بحيث يؤلفون نسقاً واحداً متماسكاً.

وممَّا هو جدير بالذكر أنَّ أصحاب الطرق شيَّدوا هذه الرُبط والزوايا والمنارات في حياتهم فكانت أشبه بالمدارس، فلكل شيخ مدرسته الخاصة الروحية، ولأجل ذلك كان تأثيرهم في المجتمع تأثيراً اجتماعياً روحياً، لذلك عنوا بتهذيب النفوس، واتزان سلوكها وتنظيم الحياة

الإنسانية كلها، فكان المريد منهم يتذوَّق الحياة مِن خلال عبادته؛ لأنَّ قيمة الإنسان لا تسموا إلاّ بها، فأصبح بذلك في طاعة الله ومرضاته.

أنَّ منهج تلك الطريقة القادرية في التهذيب الروحي والخلقي كان ذا فاعلية قوية لأنَّه يتجه إلى وجدان الإنسان أساساً، فشيوخ تلك الطريقة عرّفوا لنا من خلال آدابهم وتعاليمهم الخير والتسامح وغيره من الصفات التي تعصم المرء مِن الضلالة والتيه، وأكدَّوا أنَّ الأخلاق الفاضلة هي العاصمة مِنْ جميع الرذائل والشرور والقادرة على مسايرة تطورات المجتمع بأشكاله المختلفة وبالتالي توفر الطمأنينة والسعادة، فكان طبيعياً ووفقاً لهذا المنهج أنْ لا يهمل أصحاب الطرق الحياة تماماً، فلم يقطعوا كل صلة لهم بالحياة العملية، وإنَّما اتخذوا روحاً معتدلة فجمعوا بين العلم والعمل، مع عدم إهمال الجوانب الفكرية بحثاً عن حياة أفضل، فلم تكن حياتهم كما صوَّرها البعض بأنَّها حياة القاعدين والمتواكلين، وإنَّما حياة العباد الصالحين والعلماء العاملين الذاكرين.

ومِن الناحية الأخلاقية والاجتماعية تركوا ثروة لا يستهان بها في حياة الشعوب والأفراد من أوراد وأحزاب ووصايا وأدعية دلتْ على غاية في الذوق وسموٍ في الروح، وليس مِنَ المبالغة في شيء إذا قلنا إنَّ التاريخ خلَّد سيرة الأولياء والصالحين مِن الصوفية باعتبارهم قادة السلوك إلى الله، وهي السيرة التي ما زالت محبتها باقية في قلوب الجماهير وسلطانها قوي بالغ الأثر في نفوسهم فيما فعلوه من تثبيت المثل الأخلاقية السليمة والعلاقات الطبيعية والسمو والاهتمام بالأمور الروحية. ومنبعاً للأصول والآداب.

هوامش البحث ومراجعه:

(1) الثعالبي: فقه اللغة، تونس، الدار العربية للكتاب، 1981م، ص297.

(2) الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية،ج 4، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، دار الكتاب العربي، ص 1513.

(3) القشيري: الرسالة، بيروت، دار الكتاب ص 2، 3، 7.

(*) الدقاق: بمعنى صانع القوارير التي يشرب منها، وهو أستاذ القشيري.

(4) القشيري: الرسالة، مصدر سابق ص 181.

(5) السلمي: طبقات الصوفية، تحقيق د.نور الدين شريبة، القاهرة، مكتبة الخانجى، 1969، ط2، ص 472.

(*) السفر: عبارة عن القلب إذا أخذ في التوجُّه إلى الحق، كما جاء عن زكى مبارك: التصوُّف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ج 1، بيروت، دار الجيل، 1938م، ص56.

(6) أبو العلا عفيفي: التصوف الثورة الروحية في الإسلام، ج1، بيروت، دار الشعب، بدون تاريخ، ص123.

(7) التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، مصر، دار المعرفة، ص286.

(**) المريد: هو المبتدئ الذي يحاول أنْ ينضم إلى إحدى الطرق المنظمة، وهو المتجرد من إرادته، انظر كيلاني، التصوف الإسلامي، مصر دار الأندلس، 1970، ص26.

(8) عبد المنعم الحفني: موسوعة الفلسفة والفلاسفة، ج1، مصر، مكتبة مدبولي، سنة 1999م، ط2، ص 395.

(9) عياد: التصوف الإسلامي وتاريخه،ج2 ، مصر دار المعرفة، 1980، ص262.

(*) القطب: هو الغوث وهو عبارة عن الشخص الذي هو موضوع نظر الله من العالم من كل مكان، وعرَّفه البعض الآخر بأنَّه رجل عظيم وسيد كريم يحتاج إليه الناس عند الاضطرار في تبيان العلوم المهمة، كما جاء عن أحمد النقشبندي الخالدي: جامع الأصول في الأولياء، معجم الكلمات الصوفية، ج 3، تحقيق أديب نصر الله، بيروت، مؤسسة الانتشار، 1997، ط1، ص67.

(10) توفيق الطويل: التصوف في مصر إبان العصر العثماني، مصر، مكتبة الآداب، 1964، ص72.

(**) الأولياء: قال الله فيهم: [أَلاَ إِنَّ أَولِياءَ اللهِ لاَ خوفَ عَليهِمْ وَلاَ هُم يَحزَنُونَ]، سورة يونس، الآية 62، وقوله:(نَحنُ أَولِياؤُكم فِي الحَيَاةِ الُّدنيَا والآخِرةِ)، سورة فصلت،الآية31، والمراد بهذا هو أنْ نعرف أنَّ لله عزَّ وجلَّ أولياء قد خصهم بمحبته وولايته وهم ولاة ملكه الذين اصطفاهم وجعلهم آية إظهار فعله وخصهم بأنواع

الكرامات، انظر الهجويري: كشف المحجوب، ج 2، تحقيق أسماء عبد الهادي، بيروت، دار النهضة العربية، 1980م، ص 446.

(11) الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع، ج 2، بيروت، دار الأندلس، 1995، ص474.

(***) الرباط: هو لفظ يطلق على مراكز تجمع الصوفية، وهو في الأصل مركز عسكري للدفاع.

(12) الشيبي: صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، بيروت، دار المناهل،1997م، ط 1، ص171.

(13) عبد العزيز محمد: الملامتية الفرقة المفتري عليها، دار الشرق الأوسط، 1995م، ص 173.

(14) عفيفي: التصوف، الثورة الروحية في الإسلام، ج 1، ص281.

(15) نفس المرجع، ج 1، ص 269.

(16) عياد: التصوف الإسلامي وتاريخه، ج 2، ص 300 – 301.

(17) انظر السلمي: طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريبة، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1969م، ط 2، ص 472.

(18) نفس المصدر، ص 121.

(19) محمد: الملامتية الفرقة المفترى عليها، مرجع سابق، ص 81.

(20) انظر نفس المرجع، ص173.

(21) الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع،ج 2، ص 472.

(*) من الدلائل التاريخية، عندما احتل بغداد سليمان القانوني العثماني، أمر بتعمير المدرسة القادرية وبناء قبة عظيمة فوق ضريح الإمام، كما أنشئت بالمدرسة دار لضيافة الفقراء والمساكين، كما جاء عن أحمد شهاب الدين القادري: سلطان الأولياء عبد القادر الجيلاني، طرابلس، دار الكتب الوطنية، 1999، ص 94.

(22) الشيبي، صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، مرجع سابق ص 175.

(23) إسماعيل العربي: معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، المغرب، دار الآفاق،1993م، ط2، ص199.

(24) انظر القادري: سلطان الأولياء، مرجع سابق، ص93.

(25) نفس المرجع، ص 173 .

(*) جنكدوست: المحب للحرب.

(***) جِيلان: بالكسر اسم لبلاد كثيرة وراء طبرستان جنوب بحر قزوين، وجَيلان بالفتح قوم من أبناء فارس انتقلوا إلى نواحي من اصطخر من الجنوب الغربي لإيران، وعند قولنا الجيلي والجيلاني فواحد أي نسبة لذاك المكان.

(26) انظر كامل مصطفى الشيبي، الشيخ عبد القادر الجيلاني إلمامه بشخصيته وفكره التربوى، بحث قُدِّمَ إلى ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر، 1987م.

(*) حماد الدباس: هو آخر شيوخ عبد القادر الجيلاني وأبقاهم أثراً، وهو أبو عبدالله بن مسلم (ت 525هـ/1130م).

(27) الحفني: الموسوعة الصوفية، مرجع سابق، ص113.

(28) عياد: التصوف الإسلامي، مرجع سابق، ص279.

(29) عبد القادر الجيلاني: فتوح الغيب، تونس، مكتبة المنار، بدون تاريخ، ص 186.

(29) الشيبي: الشيخ عبد القادر الجيلاني إلمامه بشخصيته وفكره التربوي، بحث قُدِّمَ إلى ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر،1987م.

(30) نفس المرجع السابق.

(31) الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع، مرجع سابق، ج 1، ص175.

(32) الشيبي، الشيخ عبد القادر الجيلاني إلمامه بشخصيته وفكره التربوي، مرجع سابق.

(33) انظر التفتازانى، مدخل إلى التصوف الإسلامي، مرجع، ص287.

(34) نفس المرجع السابق، ص287.

(35) القادري، سلطان الأولياء عبد القادر الجيلاني، مرجع سابق، ص126.

(36) التفتازانى، مدخل إلى التصوف الإسلامي، مرجع سابق، ص97.

(37) القادري، سلطان الأولياء، مرجع سابق ص93 – 97.

(38) العربي، معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص300.

(39) عياد، التصوف الإسلامي وتاريخه، مرجع سابق،ج 2، ص283.

(40) الحفني، الموسوعة الصوفية، وأعلام المنكرين عليه والطرق الصوفية، دار الرشاد،1992، ط1، ص115.

(41) الحفني، مرجع سابق، ص 115.

(42) انظر أحمد النقشبندى الخالدي، جامع الأصول في الأولياء وأوصافهم 1، تحقيق أديب نصر الله، بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، 1997م، ط 1، ص 48،47.

(43) الطويل، التصوف في مصر إبان العصر العثماني،مرجع سابق، ص79.

(44) انظر مصطفى، البناء الاجتماعي للطريقة الشاذلية في مصر دراسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية، الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980م، ط 1، ص 82.

(45) القادري، سلطان الأولياء عبدا لقادر الجيلاني، مرجع سابق ، ص 37.

(46) العربي : معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، مرجع سابق ، ص 299.

(47) ضيف: الأدب العربي الزهد والتصوف، ج 5، مرجع سابق، ص 174.

(48) الشيبي: صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، ص 174.

(49) حسين: لمحات من التصوف وتاريخه، مرجع سابق، ص339.

(50) القادري: سلطان الأولياء، مرجع سابق، ص100.

(51) مجلة دعوة الحق، عدد 510، 1979م، ص 51، نقلاً عن القادري، سلطان الأولياء، ص 102.

(*) أبو مدين الغوث: هو شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي الشهير بأبي مدين أصله من اشبيلية، وقد ولد بقرية في شمالها، كان صوفياً معروفاً عاش بين أوائل العقد الثاني وأوائل العاشر من القرن السادس الهجري، تتلمذ على يد العديد من الشيوخ بفاس، وبعدها ارتحل إلى المشرق وقصد مكة حيث التقى مع ثالث شيوخه عبد القادر الجيلاني (إلاّ أنّنا لا نعرف طريقة باسمه في الوقت الحاضر)، كما جاء عن محمد جودت أبو اليزيد: بحار الولاية المحمدية في مناقب أعلام الصوفية، القاهرة، دار غريب، 1998م، ط 1، ص 427 – 428.

(52) العربي: معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص301،300.